يجب إذن أن نتساءل : لماذا أنكر العقاد البلاغة ؟ لماذا أنكر غير قليل من وجوه تقصى اللغة ؟ لقد كانت أبحاث اللغة أداة فى خدمة عواطف معينة ، ولايمكن أن نمدح تناول اللغة أو نذمه دون نظر الى علاقة اللغة بالمجتمع ، فالمجتمع يُسخر من حيث لانشعر بحث اللغة لتذليل مايحتاج اليه ، والمسألة الأساسية فى ملاحظات الأستاذ العقاد ، هى هذا التمييز ، لقد بدأ العقاد داعيا الى النهضة ، وكان من الطبيعى أن يتساءل عما يعوق دون النمو ، وكان من الطبيعى أن يفترض العقاد أن بعض البلاغة أو تقصى اللغة لايخدم النمو . لتقل ماتشاء فى ولاء القدماء للبحث اللغوى ، واستخراج المعنى ، واستنباط القواعد والوجوه ، هذا الولاء لا يحتمل الجدل ، ولكن السؤال الذى عنى العقاد هو كيف السبيل الى تقويم ولاء القدماء للبحث اللغوى .

إن البحث اللغوى يحقق أعراضا كثيرة ، وقد رأى العقاد نفسه مصروفا عن كثير من وجوه تقصى اللغة عند القدماء ، وماينبغى أن نفسر هذا الموقف تفسيرا سهلا عارضا ، ذلك أن العقاد أنفق معظم الوقت ينكر على بعض البحث اللغوى مشروعيته ، أو قل إنه أخذ يقوم هذا البحث بادئا بفكرة النهضة التى تعنيه .

كانت النهضة فى نظر العقاد هى إرادة الحياة ، وإرادة الحياة ليست هى إرادة البطالة والفراغ والمجانة ، فلا غرابة إذا أنكر العقاد بعض البحث اللغوى المتوارث لأنه ـ فى زعمه ـ يعطى للتسلية والبطالة مايجب أن يعطى للعظائم والجد وجلائل الحياة .

هذا هو لب موقف العقاد الغريب من شروح لغة الشعر وجهد القدماء فيما سموه باسم النقد والبلاغة ، هل تستطيع هذه الشروح أو هذه البلاغة أن تدعم الإحساس المرجو الذى نسميه باسم النهضة ؟ من الواضح أننا إذا تناسينا فكرة النهضة عز علينا أن نشرح موقف العقاد من البلاغة ووجوه العناية القديمة باللغة .

تساءل العقاد عن الفلسفة الحيوية الكامنة وراء بحوث اللغة وشروحها ، ووجد هذه الفلسفة بمنأى عن خدمة النهضة وتوقيرها والتأتى إليها من كل وجه من وجوه الممارسة اللغوية والأدبية .

وجد العقاد الجيل الناهض محتاجا الى فلسفة لغوية ثانية ، ووجد الطريق الى هذه الفلسفة مزدحما بالضباب ، أو قل وجد الاتجاه العاطفى السائد محتاجا إلى مقاومة ،